

أثار ذلك النفور من سجع الكهان إشكالا تبارت أقلام البلاغيين في تبريره، وكان مما ذهبوا إليه، أن سجع الكهان متكلف^(١) ينبني أساساً على إضافة السجع كزائد تحسینی إلى الصياغة من غير أن يستدعيه المعنى ويتطلبه، ولهذا رفضه الرسول، كما رفض أن يُصاغ على منواله. وفي ظل تلك الواقعة والحوار المحيط بها طُرحت لأول مرة قضية تحريم إطلاق السجع على ما في صورته من القرآن؛ إذ صار السجع مرتبطاً في ذهن الدارسين له بسجع الكهان الموسوم بالزيف التحسینی من حيث يكون السجع فيه مكوناً في البناء الشكلي ربما على حساب البناء المضموني، وانطلاقاً من ذلك التصور، وصف كل من الرماني والباقلاني السجع بأنه: يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع.^(٢)

وهذا التحرك البلاغي في وصف السجع اعتماداً على الفصل بين اللفظ والمعنى يمكن التماس ما يبرره من وجهة نظر حدائثية. فيبدو أن البلاغيين القدامى قد توصلوا مبكراً إلى ما يُساق نظرية أرشيبالد مكليش المتعلقة برؤيته في بناء الصوت وبناء المعنى. فهو يذهب إلى أن بناء الكلمات بوصفها أصواتاً- منفصل عن بناء الكلمات بوصفها معاني، ويتضح ذلك حينما نجد بناء الأصوات دقيقاً. منتظماً ترتاح إليه الأذن، بينما يكون المعنى غامضاً خفياً يحتاج إلى اكتشاف العلاقات بين معاني الكلمات ومعاني التراكيب. وما ذهب إليه البلاغيون من الفصل بين طرفي بنية الكلام والقول بتبعية أحدهما للآخر، يمكن تأويله في إطار وجهة النظر السابقة، باعتبار المقصود باللفظ مسألة "بناء الصوت" والمقصود بالمعنى مسألة "بناء المعنى" وعملية تبعية بناء كل منهما للآخر يتأتى تحديدها بالنظر إلى التوجه الإبداعي والأمر المعترف في التشكيل الصياغي، فإذا كان المعترف العناية بالبناء الصوتي بكل وسيلة ممكنة وإن دخل خلل على الناتج الدلالي بما يُعمى على المعنى الأصلي المراد التعبير عنه أو يأتي به ركيكاً مبتذلاً عن غير قصد فإنه يمكن تقرير أن المعنى تابع لبناء

(١) هناك تأويلات بلاغية أخرى لذلك الحديث سوف نقف عندها في موضع لاحق من البحث.

(٢) انظر: النكت في إعجاز القرآني، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت محمد خلف الله، ومحمد زغول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩١، ص ٩٧. وانظر كذلك: إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ١١١.